

الامثال والاساطير اللبنانية

المختصة بأشهر السنة الشمسية

بقلم لحد خاطر

نيسان

نيسان من اصل بابلي ومعناه في العبرية: «الزهر» و«الاسبال» و«البل الاخضر». سمي كذلك لان الازاهير والورد تظهرون فيه، وقيل انه مركب من كلمتين فارسيتين: «نو» و«سان» ومعناها: «اليوم الجديد» اشارة الى تجديد الطبيعة فيه بمناسبة الربيع، يقابله من اشهر الفرجة «اقريل» من انظمة لاتينية معناها: «الافتتاح» او «الابتداء»، ولعلهم اطلقوها عليه لان الارض تفتح فيها احشائها وتخرج النبات، او لانه كان عند بعضهم زمن مفتح السنة او مبتدأها. خصه الاقدمون بالالهة «ثنوس» آلهة الحب والجمال والمعروفة عند العرب بالزهرة وجعلوا بعض ايام من اوله اعياداً لها، وصوره الرومانيون بشكل رجل يرتص بين العازفين، وكان الشهر الثاني من سنتهم المبتدئة باذار. اما الفرنسيون فكان عندهم في الاجيال الوسطى مطلع السنة الى ان نقله ملكهم شارل التاسع في السنة ١٥٦٤ الى اول كانون الثاني، ومن ثم تابعهم الناس على ذلك الى يومنا. ويقولون ان هذا النقل كان اخس الاسباب في «كذبة اول نيسان» المعروفة، لان القوم لما كان هذا الشهر مطلع السنة كانوا يتهادون فيه ويتعايدون، فلما نقل الى كانون الثاني صارت معيدياتهم فيه مزاحاً ودعابة وهذا ياهم وعروداً فارغة واكاذيب، فعجز ذلك عادة عندهم كل عام، وانتقلت هذه العادة منهم الى غيرهم الى ان اتصلت اليها، اما «سك نيسان» فالمقول فيه انه مأخوذ عن «برج الحوت» او «برج السك» كما يدعى في لغاتهم وهو البرج الذي تنتقل منه الشمس في هذا الشهر.

يكون نيسان عادة في لبنان ذا جو صافٍ يكثر فيه الصحو وقد تشتد الحرارة فتظهر الدبابات والموام من مخابها والطيور من اوكارها، ويخرج الناس الى

الحقول تمهد الاشجار بالشذب والارض بالحرث والكل فرح مرور بادبار الشتاء وباقبال الربيع . ومن اقوال العامة في ذلك :

« في نيسان تدخل الشمس برج الثور ، وتخلع على الدنيا ثوب النور .
وقولهم : « في نيسان اطفئ نارك ، وافتح شبايك دارك ، واسبح في الشمس لئلا تبارك » .

وقد يشتد البرد في نيسان بعض السنين وتساقط الامطار والثلوج ، على ان ذلك نادر . وقد حصل مرة في احدى السنين ان تزلت ثلوج في نيسان غطت اكداش الحطب والجرزون ، فقالوا في ذلك عبارة ما برحوا يرددونها كل عام ، متى جاء نيسان ، على سبيل الذكرى وهي : « لا تتعجب يا انسان ، في نيسان ، جرفنا الثلج عن الكدسان » وهذه الاكداش من الحطب يقطونها في آذار ويحفظونها في الحقل ريثما تيبها الشمس فينقلونها الى المنازل للانتفاع بنارها في الشتاء القاسم ، ولكنهم ستنفذ اضطروا الى نقلها في نيسان ، بسبب ما حصل عندهم فيه من البرد الشديد ، الذي لم يكونوا بانتظاره ولا اتخذوا العدة لاقائه .

ويروى ان الثلوج تساقطت سنة اخرى في نيسان فقطت المراعي ، وكان العلف المدخر للشتاء قد نفذ فتمتدح على الفلاحين ان يجدوا ما يفدون به ماشيتهم ، ثم ان بعضهم كانوا شذبا كرومهم فجاءوا بجزرونها للماشية علفاً فاكلت وعاشت ، ولكن البرد اضر بكرومهم اذ تعرت بالشذب فيست ، اما الذين لم تشذب كرومهم فقد سلت لانها لم تتعرض للبرد كالاولى ، ولكن ماشيتهم لم تجد ما تأكله فهلكت ، فقالوا في ذلك عبارة ما برحوا يرددونها كلما سقط الثلج في نيسان او خيف من تساقطه ، من باب التمثيل ، وهي : « ما قلنا راح آذار وهدراته ، حتى اجانا نيسان بثلجاته ، فالذي شغل كرماته ، ربح بقراته ، وخسر كرماته ، والذي ما شغل كرماته ، خسر بقراته ، وربح كرماته » .

ولا يخفى ان هذه الرواية على سذاجتها وايجازها تروي حادثاً تاريخياً قد يجد فيه فلاخر اليوم عبرة وذكرى .

ولشذب الكروم عندهم (او تشميلها او تربتها) طرق متوارثة تدل على حذق ومهارة ، منها طريقة حرة بالذكر يسندونها الى شيخ من شيوخهم سر

بكرام رآه يشذب كرمه فوقف يراقبه ، فاذا الكرام اكثع ، ولا يحسن العمل ، فنصحته الشيخ قائلًا : « اقطع يا ابني من الدوالي ما كان مثلي ، ومن القضبان الراضع والراجع وما كان مثلك » فذهبت نصيحته قاعدة للشذب يرددونها ويجرون عليها . وقد اراد الشيخ بما كان مثله من الدوالي الحرم الثاني ، واراد بالباقي الثابت على الاصول والعائد الى الورا . والاكتع او المخرج ، وكلها تبيء الشكل الهندسي للدالية وليس منها فائدة تذكر . اما القضبان التي تترك فهي المساة في عرفهم « الملوكة » وميزتها الناء والنضارة وبشديونها عادة على برعين الى ستة تبعاً لمقدار غورها ونضارتها .

وفي الغالب يكون نيسان في لبنان ناجياً من الثلج ، قليل المطر ، فتحتاج الزروع فيه حاجة شديدة الى مطرة ترويا . وتساعدها على الاسبال ، لذلك اشاد اللبنانيون بمدح مطرة نيسان . وعظم فائدتها ، فما قالوا فيها :

« المطرة في نيسان ، بتسرى القرقة والصيسان » . والاصل في هذا القول ان اميراً لبنانياً استنمع احد الصاغة دمي من ذهب ، مرسدة بالماس والحجارة الكريمة ، تمثل الدجاجة وفراخها المساة في لبنان « القرقة وصيسان » ، وكان فخوراً جداً بهذه الدمي وكثرة ثمنها ، وقد دخل عليه في يوم من نيسان بعد جفاف طويل خيف منه على يباس الزروع احد المقربين منه ، فسأله الامير : « والقرقة والصيسان » على طبق بين يديه : « بكم تمن هذه القرقة والصيسان ؟ » اجاب الرجل : « ايها الامير ، مطرة في نيسان بتسرى القرقة والصيسان » . مشيراً بذلك الى ان ما ينتجم عن مطر نيسان من الحصب في الغلال لا يمكن تشيينه ، فذهب جوابه مثلاً .

ويقولون ايضاً بهذا المعنى : « المطرة في نيسان ، بتحيي الانسان » . « والمطرة في نيسان ، جواهر ما لها اثمان » . « والمطرة في نيسان ، بتسرى السكة والفدان » ومعناه لا تحصل فائدة من السكة والفدان وما يزرع بها ، ان لم ترو تلك الزروع امطار نيسان . ويقولون : « في نيسان الدلفة في الحارة ، بتجيب اليها من القمح غرارة » لان الدلفة لا تحصل ما لم ينهل المطر ، والمطر ينعش الزروع ويوفر الغلال ويزيدها اقوالاً .

ويستذكرون انجاس المطر في نيسان في الاستنكار ، لما يعقب ذلك من جذب ويقولون : « نيسان بلا شتي ، مثل العروس بلا جلي » اي ان نيسان ، على جماله ، اذا لم تقع فيه الامطار ، فلا يستغل الفلاحون فيه من مواسمهم ما يسرهم ، كما ان العروس ، مهما كانت جميلة ، اذا لم ترف بحفلة غناء وطرب ، فلا يجد حاضرو العرس ما يدعوهم فيه الى الاغتباط والبهجة .

وقد يشتد الحر في نيسان فبذل الاثواب الثقيلة بالاثواب الصيفية الخفيفة ، وبذر الصوف التي للاسرة بدثر القطن والكتان المستعملة عادة في الصيف ، ويقولون في ذلك : « في نيسان ، بتصير الدنيا عروس ، ويخففوا النطا والملبوس » على انهم يتحفظون في هذا التبديل محاذرين التصرع فيه ، لما قد ينتج عنه احياناً من اذى البرد ، ولا سيما في الليل ويقولون : « في نيسان من خفف لبسه ، في خفو شسه ، اضر نفسه » . وشس نيسان عندهم ذات فائدة لمن يتعرض لها ، لذلك اشتها العجوز « لها ولشيتها » كما مر بك في الكلام عن شهر شباط . ويظهر ان التبكير في غرس الاشجار الذي اشرنا اليه عند كلامنا على الكانوتين لا يصح في غرس التين الذي مواعده نيسان ، كما يتضح من المثل العامي الآتي : « متى صار ورق التين كف غراب ، قص ونصاب » ولا يصير ورق التين كذلك ، ولا سيما في الجبل ، الا في شهر نيسان .

وفي اعالي الجبال يزرعون الحمص في هذا الشهر ويقولون في ذلك : « متى صار ورق التين كف غراب ، ازرع حمصك في التراب » وفي نيسان تجم اغراس الثوت المزروعة حديثاً اي تقطع لتنمو ويقولون في ذلك : « شم وجم » اي قف حذاء الثوت وقطعها على مساواة انفك . وهذا قياس للطول الواجب ان يترك لاغراس الثوت عند « جتها »

ويستحسن من مواليد الماشية في نيسان امهار الخيل ، ويقولون في ذلك : « لا تقتني الا مهر نيسان » لان الطقس يوافق فيه نمو ويؤمل له المستقبل الحسن . وفي اواسط نيسان تظهر الطبيعة في لبنان بمظهر الصيف ، مع ان هذا الشهر هو من فصل الربيع ، ويقولون في ذلك : « شمن وادخل » اي ببدء الشمينة التي تكون غالباً في نيسان يدخل الى الصيف او الى جو جميل يشابه جو الصيف .

وفي نيسان يستمر عادة موسم القز الذي ما زال اللبنانيون يعدّونه اهم مواردهم الاقتصادية ، رغم ما ناله من الصدمات ، في هذه السنين الاخيرة ، ولهم في هذا الموسم امثال وتقاليد كثيرة نورد بعضها هنا لانها ذات علاقة بالموضوع الذي نعالجه . منها :

« في نيسان الحكم للنسوان » لان النساء يرثن ادارة الموسم فينطلقن من قيود الاعمال المنزلية ويأمرن الرجل بعمل ما يحتاجن اليه من المصارفات في مهامهن ، ويستخلص من ذلك ان رئاسة الاسرة في لبنان كانت دائماً للرجل على ما ارجبته النواميس الالهية والطبيعية . ومنها : « القزّ بدھا قزّ » اي يلزمها تمب وعناء . ويقولون في مراحل القز او اطوارها الاربعة المهمة بالفطرات : « اول فطرة ، الطعمة قطرة قطرة » . « في فطرة التتئين ، دلّي الطبق طبّقين ، واستبشري بوفاء الدين » . « في فطرة التلاقي ، حطي الواطي عالي والعالِي واطي ، واصحي من الشّهانة » . « في فطرة الاربعة ، طعمة متسابعة ، ان سلمت ذهب ، وان مرضت يا ضيمان التعب » . وبعد ان تصير القز في اليوم الخامس بعد الفطرة الرابعة يقال : « ليلة الخمسة ، كجري الكشّة » . « ليلة الستة ، كشي وحطي » . « ليلة السبعة ، ما لها شبعة » . « ليلة الثمانية ، عجوز ثابّة » . « ليلة التسعة ، راحت على الشيخ تسمى » . « ليلة العشرة ، اكلبا فشرة » ، اي قليلة . ويقال ايضاً : « عثر ، ودشّر » . ويقال : « طلعت القزّ على الشيخ ، اقبر مرتك واستريح » .

وفي هذا المثل الاخير اشارة الى ان المرأة في لبنان تعاون الرجل في اعماله اليدوية ولاسيا في تربية القز ، ولاجل هذه المعاونة يرى نفسه في حاجة قصوى اليها ، فاذا فرغ من العمل استغنى عنها ، وقد عرفت في بعض القرى اعزاًباً يلجئون بالزواج قبيل موسم الحرير ليكون الى جانبهم فيه زوجة تعاونهم عليه ، ولولا ذلك لارجأوا الزواج بل لما اقدموا عليه .

ويقولون ايضاً في نيسان ، تنشّد العسايفر الاغنية الآتية : « طاطا وّزّ ، طاطا وّزّ ، هي المنجل جات القزّ » . فمن طالع هذه المبارات العامة رأى فيها صورة صحيحة للحركة النشيطة التي تظهر في الاوساط الزراعية في لبنان ايام القز ، وادرك ما اتصف به الفلاح اللبناني من الذكاء والاقدام وبعد المهمة .